# التصوير والنحت فى الإسلام

فى سنة ١٩٧٧ نُدبتُ لتمثيل مصر فى مؤتمر حقوق التأليف Copy Right الذى عُقد بمقر هيئة اليونسكو فى باريس ، وكان توفيق الحكيم بدوره قد اختير لتمثيل مصر فى مؤتمر المسرح الذى عقد فى باريس أيضًا فى نفس الفترة . سافرنا من القاهرة سويًا ونزلنا معًا فى فندق اختاره هو وحجز لنا فيه ، بمنطقة مونبارناس الشهيرة . ظللنا معًا فى باريس فترة طويلة خلال شهرى نوفمبر وديسمبر ، نلتقى ظهرًا فى مقهى لاروند الذى يقع أسفل الفندق عند تقاطع شارعى راسباى ومونبارناس ، ثم نتناول طعام الغداء معًا -- غالبا فى مطعم لاكوبول الشهير ، وأحيانًا فى بعض المطاعم الفرنسية الطابع ، والتى كان يجد فيها الحكيم أطباق أطعمة أحبَّ أكلها منذ كان يدرس فى باريس خلال العشرينيات . بعد الغداء كنا نحتسى القهوة فى مقهى « الدوم » الذائع الصيت ، ثم نتجول بعد ذلك فى كافة أحياء باريس : مونبارناس ومونمارتر والتروكادور والإنفاليد والشانزليزيه والحى اللاتينى سان جرمان وسان ميشيل والأوبرا وسان جرمان دى بريه .. وغيرها ، حيث تدور بيننا الأحاديث فى الدين والشريعة والأدب والقانون والفكر والفن والحياة . فى يوم الأحد اخترنا أن نزور متحف اللوفر .

متحف اللوفر بباريس من أهم متاحف العالم . به قسم مهم يضم بعضًا من آثار مصر الفرعونية التى تعرض فى نظام أنيق يبرز عظمتها ، وفيه قسم آخر يضم جانبًا من العصر القبطى فى مصر ، ومن معروضات هذا العصر يبين بجلاء تطور رمز الحياة ( عنخ ) الفرعونى ليطابق الصليب المسيحى ( كما بينت تفصيلا فى كتابى - Riligion For The Future روح الدين ) . على أن أهم أجنحة متحف اللوفر الجناح الخاص بالتصوير ( الغير ضوئى – أى التصوير بالألوان المائية أو الزيتية ، والذى درج العرف على تسميته بالرسم ) . وعلى الرغم من أن رسم الدخول إلى هذا المتحف قليل ، فإنه يُفتح يوم الأحد مجانا دون أى رسم . وفى أيام الآحاد يغشى اللوفر أغلب المجتمع الباريسى ، فهو متاحف ومنتديات ومجالس ولقاءات تستمر طوال اليوم ، أى أنه متحف ومجتمع وجامعة .

فى أول زيارة لنا ( الحكيم وشخصى ) إلى متحف اللوفر ، اتجهنا أولا إلى القسم المصرى ثم ثنّينا بعد فترة بجناح التصوير . كان الحكيم يحفظ ، ويردد على مسامعى ، بيانات وافية عن كل لوحة . اسم المصوِّر ، والمدرسة التى ينتسب إليها ، والفترة التى عاش فيها ، وظروف تصوير اللوحة .. وهكذا . كنت أعرف بعض هذه المعلومات ، وكان هو يعرف التفاصيل . سألته فى ذلك فقال إنه على مدى أربع سنوات قضاها فى باريس ليدرس ، فى العشرينيات ، كان يذهب إلى اللوفر أسبوعيًا ، كل يوم أحد ،

ومعه كتيب يباع فى مدخل المتحف ويتضمن بيانات عن كل لوحة ، فاستطاع حفظ التفاصيل من تكرار المشاهدة وتكرار الإطلاع . وأخذنى بحماس إلى مكان بيع الكتيِّب الخاص بجناح التصوير لأشترى لنفسى نسخة منه ، وعدته بقراءتها جيدًا بعد إعادة قراءة القسم الخاص بالتصوير فى دائرة المعارف البريطانية .

كانت الزيارة لمتحف اللوفر أول مرة ، ومشاهدة جناح التصوير فيه ، سببا لكى نتحدث طويلا عن الفنون ، وعن التصوير والنحت ، خلال أمسياتنا فى باريس . تذاكرنا معًا كيف أن أقدم تصوير منقوش تم العثور عليه فى كهف لاسكو بفرنسا ، وهو يعود إلى عشرين ألف عام مضت ، وكيف برع قدماء المصريين فى التصوير ، خاصة بالنقش على الحجر ، وفى النحت الذى قدم نماذج رائعة وأنيقة لم تزل حتى الآن تزهو على كثير من أعمال النحت التالية ؛ وكيف أن التصوير والنحت وتشييد المعابد والأهرامات كان عملا فى صميم الشعائر والطقوس الدينية . واستعدنا سويًا معلوماتنا عن التصوير فى العصور الوسطى وارتباطه بالطقوس والأماكن الدينية ، وكيف أنه بدأ بسيمايو ثم تقدم على يد تلميذه جيوتو الذى يقال عنه إنه أبو التصوير الحديث ، نظرا لأنه أدخل فى لوحاته الحقول والحيوان والأشجار والجبال ، وكان أول من صوّر أشخاصًا فى حالة الحركة ؛ ثم تلى ذلك فرا انجيليكو الذى يمثل الفريق الروحى من المصورين ، بينما يمثل مساتشيو الفريق الجسدى منهم . وبعدهما كان أرشيلوه أول من أدخل قواعد

المنظور فى التصوير ، وأول من صور المعارك الحربية ، وبعد عدد من المصورين العظام ظهر ليوناردو دافينشى الذى بلغ من اتقان التصوير والنحت درجة كبيرة . ثم مايكل انجلو ردفايل . وبعدهم بفترة كان روبنز وفان دايك ورمبرانت وجويا وكان كلود وبوسان وبوشيه وشاردان . بعد ذلك ، وفى القرن التاسع عشر ، بدأت مذاهب ( أو مدارس ) التصوير الحديث ، وأشهرها المدرسة التأثيرية ، وأهم أعلامها جوجان وفان جوخ . وفى القرن العشرين ظهرت مدارس الفن التجريدى : التكعيبية والسريالية ، أو مدرسة ما فوق الواقع ، ومن أبرز أعلامها بيكاسو وبراك وماتيس وسلفادور دالى .

قال الحكيم : لقد كان التصوير والنحت على الدوام مترابطين مع الشعائر الدينية أساسًا فى المعابد والأماكن الدينية ، منذ عصر قدماء المصريين حتى المسيحية ، فلماذا أصبح التصوير والنحت حراما فى الإسلام مع أنهما فى طليعة الفنون جميعًا ؟ ألا يُظهر ذلك الإسلام بصورة غير حضارية ، ويوجد داخل المجتمعات الإسلامية اتجاهًا حادًّا بالتعارض بين من يميلون إلى التصوير والنحت على أساس حضارى ومن يرفضون هذا وذاك بمفهوم دينى ، فضلا عن إعطاء ذريعة لهؤلاء للطعن على المجتمع والادعاء بأنه مجتمع وثنى كافر ! ؟

قلت : إن الأمر يقتضى ابتداء تحديد مفهوم الحرام والحلال . فالحرام تعبير عُرف فى التاريخ ، وفى كثير من اللغات ، قبل

الإسلام ، وهو لا يعنى دائما ما حظره الله تعالى . ففى مدونة جستنيان ( ٥٣٠ م ) ، وهى عرض لمبادئ القانون الرومانى الذى نشأ واستقر قبل عدة قرون من إيجازه فى المدونة ، نصّ على أن الأشياء الحرام كالأسوار والأبواب ( الخاصة بالمدينة ) قريبة الشبه بالأشياء التى هى من حقوق الله ، وأنها لذلك لا تدخل فى ملكية أحد من العباد . فالقانون الذى وضع الرومان أحكامه لأنفسهم فرّق بين حقوق الناس ، وهو ما يدخل أو يمكن أن يدخل فى ملكيتهم ؛ وحق الله ، وهو كل الأشياء المقدسة كالمعابد والأشياء المخصصة لإقامة الشعائر الدينية ، والأشياء الدينية كالأراضى الموقوفة ، والأشياء الحرام وهى المال العام وفقًا للتعبير القانونى المعاصر . فى هذا المفهوم فإن مبدأ الحرام كان مبدأ اجتماعيًا وفهما بشريًا لما يُحرّم المجتمع على أفراده حق تملكه أو بيعه أو شرائه . وفى عصر ما قبل الإسلام ( المسمى بالعصر الجاهلى ) جاء فى شطر بيت من الشعر لعنترة العبسى ( وليس حرامهم بحلال ) . فالحلال والحرام آنذاك كان مفهوما اجتماعيًا لما يحظره المجتمع أو يبيحه . ثم اتخذ اللفظان بعد ذلك معنى دينيا ، من خلال الإسلام كما حدث فى المسيحية وغيرها من الشرائع باعتبار أن كلاً من لفظى الحرام والحلال يتضمن قائمة بالمحظورات أو بالمباحات الدينية ، فالحرام للمحظور والحلال للمباح . وتحت هذه القوائم دخلت محظورات ومُباحات اجتماعية ، واختلطت بالدينية ، فلم يعد كثير من الناس بقادر على التفرقة الدقيقة بينهما أو يستطيع التحديد

الواضح بشأنهما . فأغلب الناس يصفون ما يعتقدون أنه ظلم أو إسراف أو خطأ أو إساءة بأنه حرام ، دون أن ينتبهوا إلى أنه غالبًا مالا يكون من المحظور دينيًا ، وأن تعبيرهم عنه بالحرام مجرد وصف اجتماعى أو تقدير شخصى ، وهكذا .

قال الحكيم : وفقًا للمنهج العلمى الذى تسير عليه ، فقد بدأت بتحديد معنى لفظ الحرام ، وهو ما يؤدى لزوما إلى تحديد معنى الحلال ، فما هو حكم الإسلام فى النحت وفى التماثيل ! ؟ .

قلت : أقول لك فهمى عن الإسلام فى هذا الصدد ، ورأيى عن الشريعة فى هذا الموضوع ، لأنى لا أحب لنفسى – ولا لغيرى – أن يقطع بأن فهمه هو حكم الإسلام وأن رأيه هو فقه الشريعة .

لقد وردت التماثيل فى القرآن تحت وصفى الأصنام ( ثلاث مرات ) والأوثان ( ثلاث مرات كذلك ) . وما جاء فى القرآن عن الأصنام ورد نصًا فى قصة إبراهيم عليه السلام ، ويتعلق بعبادة قومه لهذه الأصنام . ﴿وإذ قال إبراهيم لأبيه آذر أتتخذ أصناما آلهة ﴾ ( سورة الأنعام ٦ : ١٧٤) ، ﴿قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين ﴾ ، ( سورة الشعراء ٢٦ : ١/١ ) ، ﴿ واجنبنى وبنىّ أن نعبد الأصنام ﴾ ، ( سورة إبراهيم ١٤ : ٣٥ ) ، أما ماجاء فى القرآن عن الأوثان فقد جاء مرتين فى قصة إبراهيم كذلك ، وإشارة لعبادة قومه لها . ﴿إنما تعبدون من دون الله أوثانا ﴾ ، ( سورة العنكبوت ٢٩ : ١٧ ) ، ﴿وقال إنما اتخذتم

من دون الله أوثانا ﴾ ، ( سورة العنكبوت ٢٥ : ٢٥ ) . أما الآية التى ذكرت الأوثان مرة ثالثة فقد جاءت بصدد بيان بعض واجبات المسلمين أثناء أداء فريضة الحج : ﴿وأذن فى الناس بالحج .. فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور ﴾ ، ( سورة الحج ٢٢ : ٢٧ - ٣٠ ) . وعندما قام النبى ﷺ وصحبه بأداء العمرة بعد صلح الحديبية طاف بالكعبة ( سبع مرات ) وفيها أصنام العرب التى وضعتها قبيلة قريش حول الكعبة لتجعل منها مثابة ( أو بارثينون Parthenon ) للعرب جميعًا . وعندما تم فتح مكة بعد ذلك ، أمر النبى ﷺ بكسر جميع الأصنام ، التى كانت فى الكعبة أو فى أى مكان آخر ، لأن العرب كانت تتخذها زلفى يتشفعون بها إلى الله ، كما كانوا يتخذون أولياءهم زلفى لذات الغرض ، وفى ذلك يقول القرآن : ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله ﴾ ، ( سورة لقمان ٣١ : ٢٥ ، سورة الزمر ٣٩ : ٣٨ ) ، ﴿ألا لله الدين الخالص . والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ ، ( سورة الزمر ٣٩ : ٢٣ ) . الواضح - إذن - من آيات القرآن ذاته أنه لا تحريم للتماثيل ، التى يُطلق عليها وصف الأصنام تارة ويطلق عليها وصف الأوثان تارة أخرى ، أما التحريم فهو يتعلق بعبادتها أو اتخاذها وسيلة للتشفع إلى الله . وفيما يتعلق بنص القرآن على تجنب الأوثان عند أداء شعائر الحج ، فهذه وصية تهدف إلى تنقية تلك الشعائر لتكون خالصة لوجه الله

فلا يزلّ مسلم ويفعل ما يؤدى إلى أن تختلط الشعائر بالأوثان أو تضطرب بها . أما حين تنتفى أى شبهة فى عبادة التماثيل ويسقط أى وهم عن التزلف بها شفاعة إلى الله ، فإنه لا يكون ثمّ سبيل أو مبرر أو حتى قول بتجنبها . معنى هذا أن القرآن لا يحرم صنع التماثيل واقتنائها قط ، خاصة فى الوقت الحالى الذى اختفت فيه من العقل البشرى أى فكرة ، وانتفت من من العادات الاجتماعية أى شبهة ، لعبادة التماثيل أو التشفع بها إلى الله أو التزلف بها إلى الجلالة .

قال الحكيم : وماذا عن التصوير فى الإسلام ؟ .

قلت : لايوجد فى القرآن أى نص يتعلق بالتصوير أو يحظر التصاوير ( الصور ) . وعند فتح مكة وتحطيم الأصنام التى كانت حول الكعبة أو بعيدا عنها ، أمر النبى ﷺ بمحو صور كانت مرسومة على جدران الكعبة ، لكنه أبقى على صورة للسيد المسيح وأمه . وظلت الصورة ( الرسم ) على جدار الكعبة طوال حياة النبى ﷺ بعد فتح مكة ، وحين طاف بالكعبة فى حجة الوداع ، وخلال حكم أبى بكر ، وردحا من الوقت إبان حكم عمر بن الخطاب ، إلى أن أمر عمر بمحو هذه الصورة . ولعله بفعله هذا كان يخشى أن تتداخل رموز المسيحية مع شريعة الإسلام ، خاصة بعدما أعلن أن شبه الجزيرة العربية لا تتسع لدينين ( شريعتين ) ، وكان القصد أن يظل فيها الإسلام وحده بلا أى رمز من شريعة أخرى ، ولا أى إشارة يمكن أن تنال من نقائه .

تلك هى سنّة النبى الفعلية المتواترة فى شأن التصوير . فالتصوير س محظورًا فى ذاته ، وإنما يتصل الحظر – إن حدث – بالموضوع ـى يُصور . وقد وردت فى كتب الأحاديث أحاديث قولية ويت عن النبى ﷺ بتحريم الصور واقتناء التصاوير ، وهذه أحاديث القولية تتنافى مع سنّة النبى الفعلية ، فيما يتعلق بترك صورة السيد المسيح وأمه مريم البتول على الكعبة .. هذا فضلا ن أنها جميعًا أحاديث آحاد ( رويت من واحد عن واحد ، تى جُمعت فى أوائل القرن الثالث الهجرى ) . وليست أحاديث تواترة ، تواتر إجماع الصحابة عليها كما تواتر عليها من تبعهم ن المسلمين ثم من تبع هؤلاء حتى وصلت إلى جميع المسلمين ؛ لا هى أحاديث مشهورة تواتر الإجماع عليها بعد عصر الصحابة م تبع تواتر هؤلاء تواتر غيرهم ، وهكذا . والقاعدة السديدة أن حاديث الآحاد تؤخذ على سبيل الاستئناس والاسترشاد ، لكن ` تنشأ بها فريضة دينية ولا يقوم بها واجب دينى . ومع كل ذا ، فقد أثيرت بخصوص أحاديث النبى ﷺ القولية عدة سائل ، منها ما إذا كان الحديث يتضمن حكما مؤقتا ويتعلق ظروف معينة ، مثل حديث « كنت قد نهيتكم عن حفظ اللحوم ن أجل الدافة » ( أى لوجود غرباء كثيرين فى المدينة ) وحديث : حالفوا المشركين : وفّروا اللحى واحفوا الشوارب . وبصدد لتصوير فإن التأقيت مستفاد من جهالة المجتمع ، وتعلق كثيرين عبادة الرموز الحجرية أو التصويرية والتخوف من صرف العبادة

إلى الصور ، وهو أمر منتف تماما فى العصور الحالية . والتصو
الضوئى ( الذى كان يسمى بالتصوير الشمسى ) هو الآن ضرو
لاستخراج البطاقات الشخصية والعائلية وجوازات السفر وغيرها
كما أنه يستعمل لتسجيل الحوادث السياسية والاجتماعية وإذاعة
فى التليفزيون أو عرضها فى السينما أو من خلال أجهزة الفيديو
وكل البلاد الإسلامية ، سنيّة أم شيعية ، تحرص على وجود قنوا
تليفزيونية لها ، محلية أو فضائية ، وإرسال هذه القنوات الذ
يستمر ٢٤ ساعة يوميًا ليس مجرد اقتناء صورة ، بل هو بـ
متصل للصور ، لا يفترق عن أى بث تليفزيونى أمريكى
بريطانى أو فرنسى أو غيره ، يدخل كل البيوت سواء كا
المشاهدون مسلمين أم غير مسلمين ، ويقتحم عليهم خلواتهم
وغرف نومهم ليعرض الصور المتصلة المتتالية . وفى التليفزيون
كما فى السينما ، يظهر ملوك ورؤساء وأمراء البلاد الإسلامية
كما يظهر علماء الدين فى برامج يومية . وفى إيران تعرض صو
فى الميادين والشوارع بالحجم الكبير لقائد الثورة الإيرانية ، كما تعرض
صور لغير القادة . وتوضع صور ملوك ورؤساء وأمراء الدو
الإسلامية فى قصور الحكم وأماكن السلطة وبيوت الشعب ،
توجد كملصقات فى الشوارع والأماكن العامة . والصحف
والمجلات التى تصدر فى جميع البلاد الإسلامية ، أو تصدر عنها
تمتلىء بالصور التى يشاهدها القراء ، ويحتفظون بها فى منازلهم
وقد يقتنونها أو يعلقونها على حوائط مساكنهم . فما معنى هذا

، يعنى أن كل المسلمين فى كل أنحاء العالم قد كفروا وأنهم
شون فى الكفر وبالكفر ، بما فيهم قادتهم وعلمائهم ! ؟ إن
ا قول ثقيل لا يقوله إلا المتشددين جدًّا ، الذين يقاطعون العالم
ه وينبذون الحياة بأكملها ، ويعيشون فى فيافى وصحارى من
مال الحقيقية أو النفسية .

قال الحكيم : إن هذا فهم سليم وحضارى للإسلام عن النحت
لتصوير ، وهو يظهر الإسلام بصورة عصرية كريمة ، فلم
يُذاع فى المسلمين ويُشاع بين غيرهم ، ليعرفه الجميع ويحسّنوا
ورتهم عن الإسلام بدلا من الخلط الذى يعيشون فيه والغلط
ى يفهمونه عن المسلمين ! ؟ .

قلت : كثير من المسلمين لا يعرفون حقيقية الإسلام ،
لا يقرءون عنه فى المراجع الأساسية والمصادر المعتبرة ، وكل
لوماتهم إشاعات متداولة ، ومنقولات متبادلة ، ومسموعات
بر محقّقة ، ومرويات ليست موثقة ، يختلط فيها الصحيح
لخاطئ ، ويتداخل فيها الحق بالباطل ، ويتمازج بها الشرع
لرأى ، ويتوارى فيها الحكم الدينى الصائب خلف التراث الشعبى
دارج ( الفولكلور ) . ويلاحظ فى ذلك أنه لا يوجد إلا أقل
ن القليل من العلماء والمثقفين من يقدم الرأى موثّقا بالمراجع أو
سند القول إلى آية قرآنية محددة بتفسير سليم ثابت أو إلى حديث
وى صحيح يبين مصدره من بين كتب الأحاديث – الصحاح

والمسانيد – ونوع الحديث ، متواترا أم مشهورًا أم آحادا ، وقو الحديث ونطاق فاعليته ، وهكذا . كل الكلام غير محقق وك الحديث غير موثق ، وذلك فى عصر يُعنى بالتحقيق العلمى والتوثيـ المرجعى ، بحيث لا يُلقى القول على عواهنة ولا يُرمى الكلام عل مراسيله ، فيغم على الناس بيان الصحيح من غير الصحيح ومعرف الصادق من غير الصادق .

قال الحكيم : أظن أن للشيخ محمد عبده رأيا فى التصوي والتماثيل قريب من رأيك ! .

قلت : المستنيرون فى كل عصر وفى أى مصر يتكلمون بلغ واحدة ويأخذون من نبع واحد . يعمدون إلى التفسير الصحيح للدين ، والتأويل الصائب للشريعة ، قصد فك الآصار عن الناس ورفع الأوزار عنهم . فالإسلام ييسّر ولا يعسّر . وليس من المعقول أن لا يحرّم الإسلام أمرًا ما تحريما قاطعًا باتا مستديما ثم يوجد من يدعو إلى هذا التحريم ، بغير سند سليم ودون سبب شرعى ليكفّر الناس جميعًا ويجعلهم يعيشون فى عنت وعذاب ، لم يظنون من أنهم اجترحوا الآثام واقترفوا المظالم ، والأمر أيسر من هذا بكثير ، فليس فيه إثم وليس فيه ظلم .

الإسلام فى حاجة إلى الآراء المستنيرة والعقول المتفتحة والضمائر النقية ، وحين يظهر ذاك فسوف يكون الفتح المبين للإسلام وللإنسانية .